

## التشبيه في القرآن

الاستاذ أحمد أحمد بدوي

— ٤ —

أول ما يسترعى النظر من خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سر خلوده ، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة ، وسر عمومه للناس جميعا ، يؤثر فهم لأنهم يدركون عناصره ، ورونها قريبة منهم وبين أيديهم ، فلا تجد في القرآن تشبها مصنوعا يدرك جماله فرد دون آخر ، ويتأثر به إنسان دون إنسان ، فليس فيه هذه التشبيهات المحلية الضيقة مثل تشبيه ابن المتر :

كان آذيونها والشمس فيه كالية

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

بما لا يستطيع أن يفهمه على وجهه ، ويعرف سر حسنه ، إلا من كان يعيش في مثل حياة ابن المتر ، وله من أدوات الترف مثل أدواته .

تشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة . أنظر إليه يجد في السراب وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعا ، فيفرم مرآها ، ويمضون إلى السراب بظنونهم ماء ، فيسبون إليه ، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن عملاً الخيبة قلوبهم ، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد ، فلا يجدون شيئا مما كانوا يؤملون . إنه يجد في هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة ، تظن مجدبة نافمة ، وما هي بشيء ، فيقول : والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

ويجد في الحجارة تنبو على الجس ولا تلين ، ويشمر عندها المرء بالنبو والحسوة ، يجد فيها المثال اللوس لقوة القلوب ، وبمدها من أن تلين لجلال الحق ، وقوة منطق الصدق ، فيقول : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة »

أولا زى أن القسوة عندما تحظر بالذهن ، يحظر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية ؟

ويجد في هذا الذي يمالج سكرات الموت ، فتدور عينه حول عواده في نظرات شاردة تأنه ، صورة تحظر بالذهن لدى رؤية هؤلاء الخائفين الفرعين من المضي إلى القتال وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد ، فيقول : « قد يعلم الله الموتى منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشجة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يمشی عليه من الموت » .

ويجد في الزرع وقد نبت شيئا ضميكا ثم لا يلبث ساقه أن يقوى ، بما ينبت حوله من البراعم ، فيشدد بها ساعده ، ويغلظ ، حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجاب ، يجد في ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد ، فقد بدوا قلة متافكا ثم أخذوا في السكثرة والنماء ، حتى اشتد ساعدهم ، وقوى عضدهم ، وصاروا قوة عملاً قلب محمد بهجة ، وقلب الكفار حقدًا وغيفًا ، فقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، ... ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأ ، فأزروه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » ويجد في أعجاز النخل المنقر المقطع عن مغرسه ، وفي المشيم الضميف الداوي ، صورة قريبة من صورة هؤلاء الصرعى ، قد أرسلت عليهم ربيع صرصر تنزعهم عن أما كنهم فأنقوا على الأرض مصرعين هنا وهناك ، فيقول : « إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر » ويقول : « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتظر » .

فأنت في هذا تراه يتخذ الطبيعة ميدانا يقتبس منها صور تشبيهاته ، من نباتها وحيوانها وجمادها ، فما اتخذ فشيئا به من نبات الأرض المرجون ، وأعجاز النخل ، والمصف المأكول ، والشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، والحبة تنبت سبع سنابل ، وهشيم المحتظر ، والزرع الذي أخرج شطأ ، وبما اتخذ مشبها به من حيوانها الإنسان في أحوال مختلفة والنكبات والحمار ،

الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال: وإذ صار الجبل كأنه ظلة لما في كلمة تنق من تصوير ارتفاع الجبل من الأرض تصويراً يوحي إلى النفس بالرهبة والفرع، ولما في كلمة فوقهم من زيادة هذا التصوير الفرع ونأ كيد في النفس، وذلك كله يهد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء مكن للصورة في النفس، ووطد من أركانها. ومع ذلك ليس التشبيه في الآية عملاً إضافياً بل فيه إتمام المعنى وإكالة، فهو يوحي بالإحاطة بهم، وشمولهم، والقرب منهم قرب الظلة من الاحتفال بها، وفي ذلك ما يوحي بخوف سقوطه عليهم.

ومن خصائص التشبيه القرآني دقته، فهو يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذاً، وخذ مثلاً لذلك قوله تعالى: «مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها، كمثل الحمار يحمل أسفارا، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين» فقد يتراءى أنه يكفى في التشبيه أن يقال: مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً حين يقرون بين هؤلاء وقد حلوا التوراة، فلم ينتفعوا بما فيها وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدري مما ضمنه شيئاً، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي جعل الصلة بينهما قوية وثيقة.

وقوله تعالى: «فألم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قنورة» فرما بدا أنه يكفى في تصوير إعراضهم بأنهم كالحير، ولكنه في دقته لا يكتفى بذلك، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة، وإسراءهم في إبعاد أنفسهم عنها، إسراعاً يعضون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الحرب وتحمها عليه يزيد في هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها، فهي تتفرق في كل مكان، وتجرى غير مهتدية في جربها. أو لا ترى في صورة هذه الحمر وهي تجر في هربها لا تلوى على شيء تبني الفرار من أسد يجرى وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة فارين أمام الدعوة لا يلوون على شيء، سارين على غير هدى، ثم ألا تبث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية؟

ومن ذلك وصفه الخشب بأنها مسندة في قوله تعالى: «وإذا

والشباب، والفراس، والجراد، والجمال، والأمام. ومما أخذ مشبهاً به من مجادها المهن النفوس، والمصيب، والجبال، والحجارة، ورماد، والياقوت، والمرجان، والخشب. ومن ذلك ترى أن القرآن لا يعنى بنفاضة الشبه به، وإنما يعنى العناية كلها باقتراب الصورتين في النفس، وشدة وضوحها وتأثيرها.

هذا ولا يترك على ما ذكرناه من استمداد القرآن عناصر التشبيه من الطبيعة ما جاء فيه من تشبيه نور الله بمصباح وصفه بأنه في زجاجة كأنها كوكب دري، لأن هذا المصباح قد تغير وتحول؛ فإن المراد تشبيه نور الله بالمصباح القوي، والمصباح باق ما بق الإنسان في حاجة إلى نور يبده به ظلام الليل.

ومن خصائص التشبيه القرآني، أنه ليس عنصراً إضافياً في الجملة، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه، فعمله في الجملة أنه يعطى الفكرة في صورة واضحة مؤثرة، فهو لا يعنى إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة، يتطلب المعنى ليصبح واضحاً قوياً، وتامل قوله تعالى: «صم بكم عني فهم لا يرجعون»، نجد فكرة عدم سماعهم الحق وأنهم لا ينطقون به، ولا ينظرون إلى الأدلة التي تهدي إليه، إنما نقلها إليك التشبيه في صورة قوية مؤثرة، كما تدرك شدة الفرع والرهبة التي ألت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد، فلم يدفهم إيمانهم إليه في رضا وتسليم، بل صلاً الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم، ندرك ذلك من قوله سبحانه «يجادلونك في الحق بعد ما تبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون». وتقف اضطراب الرأفة وقتها، وعدم استقرارها على حال، حتى تصبح حياتها مليئة بالنمب والمنايا - من قوله سبحانه: «وان استطيموا أن تغدوا بين النساء ولو حرصن، فلا تميلوا كل الميل، فتذروها كالملقاة». وتفهم مدى حب المشركين لأهلهم من قوله تعالى: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله». وهكذا نجد للتشبيه مكانه في نقل الفكرة وتصويرها، وقل أن يأتي التشبيه في القرآن بعد أن توضح الفكرة نوع وضوح كما في قوله تعالى: «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة» وإذا أنت تدبرت أسلوب

الهدف في الآية الأولى يرى إلى تصوير الموج عالياً ضخماً مما تستطيع كلمة الجبال أن توحى به إلى النفس ، أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة ويفسونه لدى الرخاء ، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين ، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج ، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً ، إذا هو ارتفع حتى ظلل الروس ، هنالك يملأ الخوف القلوب ، ويذهل الرهبة النفوس ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين ، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف ، كان وصف الموج بأنه كالظلال أدق في تصوير هذا المقام وأصدق . وعلى طريقة إيثاز كلمة الأعلام على الجبال التي تحدثنا عنها آثر كلمة القصر على الشجر الضخم ، لأن الاشتراك في هذه الكلمة بين هذا المعنى ، ومعنى البيت الضخم يشير المعنيين في النفس معاً فتزيد الفكرة عن ضخامة الشراء رسوخاً في النفس . وآثر القرآن كلمة « بنيان » في قوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » لما تشير في النفس من معنى الاتحام والاتصال والاجتماع القوي وغير ذلك من معان ترتبط بما ذكرناه ، مما لا يثار في النفس عند كلمة حائط أو جدار مثلاً .

واختار القرآن كلمة « لباس » ، في قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن » ، لما توحى به تلك الكلمة من شدة الاحتياج كاحتياج المرء للباس ، يكون مصدر راحة وعنوان زينة معاً .

ومن سميات التشبيه القرآني أيضاً أن المشبه قد يكون واحداً ويشبه بأمرين أو أكثر ، لها صلة تربط بين هذا الأمر وما يشبهه ، تشبيهاً للفكرة في النفس ، أو لهاها من عدة زوايا ، ومن ذلك مثلاً تصوير حيرة المناقنين واضطراب أمرهم ، فإن هذه الحيرة يشهد تصورهما لدى النفس إذا هي استحضرت صورة هذا السارى قد أوقد ناراً تضيء طريقه فصرف أين يمشى ثم لم يلبث أن ذهب الضوء ، وشمل السكان ظلام داس ، لا يدري السائر فيه أين يضع قدمه ، ولا كيف يأخذ سبيله ، فهو يتعبط ولا يمشى خطوة حتى يرتد خطوات . أو إذا استحضرت صورة هذا السائر

رايتهم تمجيك أجسامهم ، وإن يقولوا نسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » فهم ليست خشباً قائمة في أشجارها لما قد يكون لها من جمال في ذلك الوضع ، وايت موضوعه في جدار ، لأنها حينئذ تؤدي عملاً ، وتشمع بمدى فائدتها ، وليست متخذاً منها أبواب ونوافذ لما فيها من الحسن والخرف والجمال ، ولكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال ، وتوحى بالفلة والاستسلام والبلادة .

ولم يكتف في تشبيه الجبال يوم القيامة بالمهين ، بل وصفه بالنفوس إذ قال : « وتكون الجبال كالمهين المقوش » ، للدقة في تصوير هشاشة الجبال ، كما لم يكتف في تشبيه الناس بمخرجون يوم القيامة بأنهم كالجراد بل وصفه بالمتنشر ، فقال : « يخرجون من الأبدان كأنهم جراد منتشر » ، حتى يكون دقيقاً في تصوير هذه الجوع الحاشدة خارجة من أبدانها منتشرة في كل مكان عملاً الآن ، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف .

ومن خصائص التشبيه القرآني القدرة الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة الصورة الموحية ، نجد ذلك في كل تشبيه قرآني ، وحسي أن أشير هنا إلى بعض أمثلة هذا الاختيار .

نجد القرآن قد شبه بالجبال في موضعين فقال : « وهي تجري بهم في موج كالجبال » ، وقال : « ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام » ولكنك تراه قد آثر كلمة الجبال عند الموج لما أنها توحى بالضخامة والجلال معاً ، أما عند وصف السفن فقد آثر كلمة الأعلام جمع علم بمعنى جبل ، وسر إشارتها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة ، ولما كان من معاني العلم ، الرابية التي تستخدم للزينة والتجميل ، كان ذكر الأعلام محضراً إلى النفس هذا المعنى ، إلى جانب إحضارها صورة الجبال ، وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر ، تزين سطحه ، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً ، وفي كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء . وشبه القرآن الموج في موضعين ، فقال : « وهي تجري بهم في موج كالجبال » وقال : « وإذا غشيم موج كالظلال دعوا الله مخلصين له الدين » وسر هذا التلويح أن